العرب
الأربعاء 2020/01/29
السنة 42 العدد 11601

فيلم «نحن من هناك» عزف على وتر التغريبة السورية

الصورة تنتصر على المأساة في مهرجان روتردام السينمائي

من الأفلام التي لفتت الأنظار كثيرا في الدورة الـ49 من مهر جان روتردام السينمائي الفيلم التسجيلي الطويل "نحن من هناك" للمخرج وسام طانيوس، وهو من الإنتاج اللبناني الفرنسي المشترك.

أمير العمري
كاتب وناقد سينمائي مصري

الفيلم اللبناني التسجيلي الطويل "نحن من هناك" للمخرج وسام طانيوس هو عمل آخر أو تنويعة سينمائية أخرى على "الحالة السورية"–كما يجب أن نطلق عليها– لكنه عمل مختلف تماما. فهو لا يحفل مثل غيره، بصور الحرب والدمار والمآسي الإنسانية الناتجة عمّا شهدته سوريا خلال السنوات السبع الماضية، لكن مخرجه يختار بوعي وذكاء، أن يصوّر المأساة كما تنعكس على ثنائي سوري بعد أن انتقل للعيش في "الدياسبورا".

وسام طانيوس يعكس في فيلمه لحظات القلق والترقب والتشكك والشعور باللاجدوى بأسلوب رقيق يفيض بالشاعرية والسحر

هذا فيلم حميمي يتصل بالوجدان ويناقش الفرد، ولكن ليس على صعيد النقد السياسي. المؤكد أن السياسة تكمن تحت جلد الصورة، لكن الأهم أنه يلمس السياسة من خلال التسلل إلى الإحساس الفردي والشخصي المباشر بالمأساة، بالرغبة في تجاوز المحنة، محنة الفقدان، فقدان الوطن والأسرة والجو العام الذي كان يحتضن الفرد، ورصد ما يعيق تطلعه إلى مواصلة السعي من أجل التحقّق من خلال الإبداع والعمل والعطاء والإحساس بالانتماء للعالم.

بين زمنين

نحن أمام ثنائي: شقيقان هما جميل وميلاد. أما صانع العمل، أي المخرج وسام طانيوس، فهو ابن خالهما الذي أخذ على عاتقه توثيق معاناة الشقيقين في البحث عن مخرج لهما من جحيم الوضع السوري، بعد أن سبقهما في الهجرة، واستقر في أوروبا وأصبح متاحا له الانتقال في أرجاء القارة، لتصوير فيلمه على مدى ما يقرب من خمس سنوات، من 2015 حتى أوائل العام الحالي.

ينتمي الشقيقان جميل وميلاد لأب كان يمتلك ورشة نجارة في سوريا. وقد تركت النشأة تأثيرها الكبير عليهما، وبعد وفاة الأب تكفل بهما الخال الذي ضمهما إلى أسرته مع ابنه وابنته، وكان مولعا بالتصوير بكاميرا صغيرة، وبفضل هذه الكاميرا توفر أرشيف من المواد المصوّرة التي تتابع الشقيقين في مرحلة الطفولة، في الزمن الجميل، عندما كانا يمرحان ويمزحان، يسبحان حينا، ويلعبان حينا آخر.

والحقيقة أنه من دون هذا الكنز من المواد المصوّرة لم يكن الفيلم ليكتسب كل هذه الحميمية وقوة التأثير. إلاّ أن الفضل يعود إلى براعة المخرج في رسم معالم فيلمه والتعاون مع المونتيرين جينا حشيشو وماتيلد مؤيرد في صياغة فصوله المختلفة التي تعبر فترات زمنية دون أن تفقد الإيقاع والانسيابية والتحكّم الدقيق في المادة وفي الانتقال بين اللقطات الحية في الأماكن المختلفة التي يصوّر فيها، وفي أكثر الظروف تعقيدا (كما وهو يصوّر قارب اللاجئين الذي يقوده رجل هو الذي يقوم مجموعة من السوريين من بينهم جميل الذي سيتمكن من الدخول بطريقة غير شرعية إلى السويد). كما يجيد توظيف اللقطات الحميمية للماضي في سوريا من خلال اللقطات الباقية ممّا صوّره الخال.

جميل وميلاد يختلفان في اهتماماتهما تماما. جميل لم يرث عن والده مثل شقيقه، الاهتمام بأعمال النجارة، لقد تركت حرفة الوالد تأثيرها عليه دون شك، وهو يجيد التعامل مع الأخشاب، لكنه يحترف الموسيقى، فهو عازف ترومبيت وعازف إيقاع. أما ميلاد فهو يجد نفسه في النجارة التي يعتبرها أيضا فنا من الفنون لا مجرد حرفة، وهو يتعامل مع الخشب بحساسية وفهم ويمكنه التفرقة بين أنواعه ويتحسّس صلابته وخشونته ويعرف مدى ملاءمته للقطع والتشكيل.

سيدفع ميلاد مبلغا كبيرا لمهرب لإخراجه من سوريا إلى أن يصل إلى السويد ويبدأ العمل ويثبت وجوده في مهنته. أما جميل فسوف يذهب أولا إلى بيروت حيث يقوم بتدريس الموسيقى للأطفال، ثم يجد نفسه مدفوعا للخروج إلى العالم الفسيح، إلى ألمانيا.

لا أحد منهما يعرف كيف تسير الأمور. هناك إحساس بالمتاهة والاغتراب والشعور القاسي بالغربة، لكن البديل ليس من الممكن التفكير فيه أصلا. فالبديل بالنسبة لهما أصبح هو الموت أو العدم.

تنتقل كاميرا وسام طانيوس من دمشق إلى بيروت إلى أثينا، إلى برلين إلى ستوكهولم.. مرورا بمحطات أخرى، في مغامرة تلامس المغامرة التي يقوم بها البطلان. وما يميّز الفيلم أنه لا يتعامل مع المناظر المألوفة في سينما الغربة السورية، بل يركّز من خلال المقابلات المصوّرة مع الشقيقين، على فكرة الإصرار على التحقّق في الغربة رغم أنها التجربة الأولى لكلا البطلين في السفر.

شاعرية الإخراج

يتميّز أسلوب الإخراج بالذكاء والقدرة على الحفاظ على التلقائية وتحييد الكاميرا بحيث لا يشعر بها من يحاوره المخرج. ولا شك أن الألفة التي تجمع بين ميلاد وجميل من جهة، ومخرج الفيلم من جهة أخرى، تجعل هذه المهمة سهلة.

ويلتقط المخرج من خلال المونتاج الدقيق، أكثر اللحظات تعبيرا عن الشخصية، سواء أثناء العمل أو العزف الموسيقي أو في البحث عن مكان لقضاء الليلة في أثينا، ثم الانتقال إلى ألمانيا أو إلى السويد دون خطة واضحة، وكأننا نشهد مخاضا جديدا من أجل حياة جديدة، مع إدراك أن الأمر لن يكون سهلا وأن الحياة الجديدة في المهجر، تقتضي التفوّق والنجاح وإثبات الوجود في المجتمع الجديد.

هذا عمل رقيق يفيض بالشاعرية والسحر، يعكس المخرج فيه لحظات القلق والترقّب والتشكك والشعور باللاجدوى، الحديث عن الاكتئاب والرغبة في الانتحار التي سيطرت على جميل في خضم شعوره باليأس، ثم التعبير عن الشعور بفقدان الوطن والشعور بالاشتياق إليه لكن من دون مغالاة في الحنين. فهنا يكون الصدق أقوى تأثيرا من الإدعاء. ويصبح البحث عن معنى الوطن، ملبوسا بالخوف من الماضي القريب رغم الحنين الصعب إلى الماضي البعيد.

في الطريق إلى المجهول

ومن عوامل تميّز الفيلم أيضا، براعة استخدام المخرج للموسيقى، خاصة أنه يستخدم موسيقى آلة الترومبيت (أو البوق) الحزينة الشجية التي يعزف عليها جميل، مع المزج بين الصوت من خارج الصورة والانتقال بالقطع إلى الصورة أخرى مع استمرار الصوت.

الصورة بشكل عام شديدة الجمال بفضل تصوير وسام طانيوس نفسه ومصوّره فادي السمرا، ولا يفقد الفيلم قط رونقه ونغمته اللونية وتجانس صوره ولقطاته رغم المسافة الزمنية الطويلة التي تفصل بين مناظره المختلفة باختلاف الأماكن والانتقال الدائم إلى الأمام وإلى الخلف، مع إجادة اختيار متى يستخدم المناظر الوثائقية من الأفلام المنزلية القديمة، أو لقطات الطبيعة والبحر لكي يترك للصورة مساحة للتنفس ويترك للمشاهد أيضا مسافة للتأمل. إنه عمل لا يشبه غيره من أفلام المأساة السورية. ويكمن سر تميزه في صدقه وبساطته وذكاء التقاط اللحظات الحميمية الصادقة من بطليْه.

«من رمل ونار» روائي مغربي عن الأب الروحي لجواسيس العالم

يعرض، حاليا، في أربعين قاعة سينمائية مغربية، علاوة على العديد من الفضاءات الثقافية في البلدان الأوروبية، الفيلم التاريخي المغربي الجديد "من رمل ونار ـ الحلم المستحيل" للمخرج سهيل بن بركة، وهو الفيلم الذي صوّر فيه مخرجه بكثير من الرمزية مطامع المستعمرين في القرن الثامن عشر بدول الشرق.

فيصل عبدالحسن
كاتب عراقي

نقل الفيلم المغربي الجديد "من رمل ونار ـ الحلم المستحيل" لمخرجه المغربي سهيل بن بركة الذي امتد لمئة وخمس عشرة دقيقة، الصراعات السياسية التي كانت تدور بين الدول الاستعمارية والإمبراطورية العثمانية حول الشرق. وكان المغرب في صدارة الأحداث، لكونه يقع بمواجهة جغرافية لأوروبا أكثر من أي بلد آخر من بلدان الشرق.

وعرض الفيلم المشاهد الطبيعة الخلابة التي تم اختيارها في دول مختلفة كإسبانيا والمغرب وبريطانيا، وهو يتابع الجاسوس الإسباني الملقب بعلي باي العباسي، وهو يمهد لمهمته. ولم يكن الرجل سوى طامع في الجاه والثروة ويدعى "دومنغو باديا ليبليتش" وهو ابن ضابط إسباني مغمور، ولكن الأب مكّن ابنه من دراسة الطب والفلك وعلم المعادن والنبات والرياضيات وتعلم عدة لغات أوروبية إلى جانب العربية.

وبعد تخرجه عرض خدماته على المسؤول الإسباني الرفيع كودوي، فطلب منه التسلّل إلى المغرب للقيام بالتجسّس على السلطان المغربي مولاي إسماعيل (1766 ـ 1822)، لأن السلطات الإسبانية علمت بمفاوضات بين الإنجليز والسلطان لمبادلة الدقيق بالبنادق، ممّا أثار مخاوف إسبانيا من أن تكون لدى السلطان نية باستعادة الأندلس.

سافر دومنغو الذي يعتبر الأب الروحي لجواسيس العالم إلى فرنسا، فقابل تاليران وزير نابليون، وعلم منه بمهمته السرية القادمة، فشجعه، وأوصى ممثلي فرنسا بالمغرب به خيرا، وطلب منهم مساعدته. ومن فرنسا عبر المانش ليصل إلى بريطانيا، وهناك انتحل شخصية تاجر مسلم قادم من حلب يدعى "علي باي"، وعرّف نفسه بأنه سليل الخلفاء العباسيين، وأن أباه أرسله إلى إسبانيا ليتعلم العلوم الأوروبية ويعود ليفيدهم بعلومه.

في لندن وسّع معلوماته بما توفر فيها من تراث الشرق، ومن هذه الجزئية التاريخية انطلق المخرج بن بركة ليربط علاقة غرامية بين علي باي ونبيلة بريطانية تدعى الليدي إستر، وهي أيضا مغامرة محبة للشرق. هجرت بلادها، واستقرّت في مناطق بين سوريا ولبنان، وأسلمت إسلاما متطرفا، واختيرت من مشايخ القبائل كملكة لتدمر، وربطت بين الاثنين علاقة حب امتدت لأربعة عشر عاما.

صوّر الفيلم دهشة سكان طنجة المذهولين بخبرات علي باي، الذي وصلها قادما من إسبانيا، مستخدما علومه التي أتقنها في علم الفلك لتعجب به العامة، وقد حدّد للناس اليوم الذي سيحدث فيه الكسوف. وصدقت توقعاته، ممّا جعل أهل طنجة يعتقدون في قداسته.

وكان هدفه إعداد المغرب للغزو الإسباني القادم من خلال نقل المعلومات عن حالة الجيش المغربي ومخططات الحصون، ونقل ما يدور في بلاط السلطان بعد أن ينال ثقته، وهذا بالفعل ما حصل، وصار قريبا جدا من السلطان حالما علم الأخير من أتباعه بعلوم وخبرات علي باي.

خطّط دومنغو للتقرّب من قادة الجيش في الحصون، وعمد إلى بثّ الفتنة بين أتباع السلطان المغربي، وشجّع قادة قوات متفرقة كانت مسيطرة على مناطق القبائل، للزحف على مراكش، وإزاحة السلطان ليحل محله علي باي بمساعدة هذه القوات التي سيتم إنزال الأسلحة والعتاد القادمة من إسبانيا لها عند السواحل.

الفيلم من إنتاج مغربي إيطالي، كلّفت ميزانيته 8 ملايين يورو، واستمر الإعداد له أربع سنوات، فيما تم تصويره في ثلاثة أشهر، انتقلت فيها الكاميرا إلى الكثير من الأمكنة في بلدان مختلفة كالمغرب وإسبانيا وبريطانيا، وصوّرت لقطات رائعة للطبيعة، مثلت في الفيلم ركنا دراميا ساهم في غنائية المشاهد من خلال التأكيد على أن هذه الطبيعة الغناء هي أحد مطامع المستعمرين.

وأضاف إلى جمال الفيلم الأداء المتميز للممثلين، كالنجم الإسباني رودولفو سانشو والنجمة الإيطالية كارولينا كريسينتيني، وجيانكارلو جيانيني، ومن المغرب عمر العزوزي –وزير الملك جنان– الذي يستقبل زوار البلاط. إضافة إلى يوسف بنزكور الذي أدى دور محارب تركي لحماية ملكة تدمر بطلة الفيلم، وحميد باسكيط، الذي مثل دور ابن مالك، وهو يتتبع خطوات علي باي الجاسوس مكتشفا حقيقته ليخبر السلطان بها. هذا علاوة على جمال العبابسي، كمال موماد، ويوسف كركور، وقد أدوا أدوارا ثانوية، لكنها كانت مهمة ومحوريّة.

تميز سهيل بن بركة في عمله الجديد بتركيبه الحاضر على الماضي للتحرّك بحرية وديناميكية خاصتين به، قصد توصيل رؤيته حول ما يدور في المنطقة من أحداث معاصرة، كما فعل في فيلمه التاريخي السابق "معركة الملوك الثلاثة" سنة 1990.

قصة حب مستحيلة بين مستشرقين على أراض عربية

وفي فيلمه الأخير أطنب بن بركة في التعبير من خلال حيوية الصورة وتآزرها مع المؤثرات الصوتية والموسيقى التي تم اختيارها لمصاحبة الأحداث، فطغت الموسيقى في بعض الأحيان على الحدث الذي يدور على الشاشة، ليصير سببا في تشتيت ذهن المشاهد. إلاّ أنه في المقابل اعتمد على المشاهد البانورامية التي أتت موفقة، كما انتقلت الكاميرا بين الصالونات فعكست الأذواق المختلفة للطبقات العليا في القرن الـ18، فكانت صور الأماكن جسدا حيا للفيلم.

وذَكّر فيلم "من رمل ونار ــ الحلم المستحيل" مشاهديه بأفلام عالمية تاريخية، كفيلم "جنكيز خان" الذي أنتج في العام 1965 للمخرج هنري لفين وبطولة عمر الشريف. وحكى عن صعود الغازي المغولي جنكيز خان، وفيلم "لورنس العرب" الذي أنتج سنة 1962 للمخرج ديفيد لين بطولة بيتر أوتول وعمر الشريف وأنتوني كوين. وقدّمت فيه ثورة القبائل العربية على الدولة العثمانية لمساندة الإنجليز في الحرب العالمية الأولى. وأيضا فيلم "وداعا بونابرت" للمخرج يوسف شاهين سنة 1985 إنتاج مصري – فرنسي مشترك، وبطولة ممثلين مصريين وفرنسيين. وفي كل هذه الأفلام تم اعتماد الوثيقة التاريخية، وكذلك فعل بن بركة في تتبع المسارات السياسية في القرن الثامن عشر في فيلمه الأخير من خلال الوثيقة التاريخية.

وانتهت علاقة علي باي بإستر ملكة تدمر عند اكتشافها حقيقته، وكونه جاسوسا إسبانيا، وليس مسلما كما أوهمها، فانتقمت منه بإرسالها له من وضع له السم، فمات مسموما أثناء رحلته إلى حج مكة المكرمة. وتشير المصادر التاريخية إلى أنه مات بمرض الزحار (التدفق الدموي)، ودفن على الطريق بين مكة والطائف، ولم يمت مسموما.

«حاحاي الكلاب» يفوز بجائزة الأفلام المستقلة بالسودان

الخرطوم – فاز الفيلم القصير "حاحاي الكلاب" للمخرجين صدام صديق وياسر فايز بجائزة "الفيل الأسود" في مهرجان السودان للأفلام المستقلة في دورته السادسة التي اختتمت مساء الاثنين.

ويتناول الفيلم قصة الرجل السوداني درويش المتزوج من الهولندية نورا بعد 26 عاما عاشها في أوروبا، وبعد بلوغ ابنته سن الثامنة عشرة يظهر عشيق محتمل في حياة الابنة فتتحرك بداخل درويش مشاعر الأب العربي ويستدعي من الذاكرة العادات والقيم التي تربى عليها في السودان ليدور حوار طويل بينه وبين زوجته بعد حفل عيد ميلاد الابنة.

وأقيمت حفلة ختام المهرجان في العاصمة الخرطوم بحضور عدد من صناع السينما من داخل وخارج السودان ووزير الثقافة والإعلام فيصل محمد صالح ومدير الإذاعة والتلفزيون رشيد سعيد.

وتنافست في المسابقة الرسمية عشرة أفلام سودانية ومنحت لجنة التحكيم جائزتها الخاصة لفيلم "رحلة إلى كينيا" من إخراج إبراهيم أحمد وشهرته "سنوبي". ويدور الفيلم حول رحلة فريق داخل حافلة صغيرة في طريقها من الخرطوم إلى كينيا مرورا بإثيوبيا للحاق ببطولة تقام هناك.

وقال رئيس المهرجان طلال عفيفي في كلمة الختام "اليوم نجد أنفسنا أمام بدايات جديدة يضيء قناديلها صهيب قسم الباري وأمجد أبوالعلا ومروة زين وحجوج كوكا، بدايات قوية تستمد عزمها من التمّرد والغضب والتطلع والروح الفنية العالية. لقد شرفنا هؤلاء السادة خلال الماضي بما نالوه من تقدير واهتمام العالم كله".